*نشأة علوم البلاغة، وبداية نموها على يد المتأدبين والمتكلمين*

*بحث فى دراسات بلاغيه*

إعداد أ/ فاطمة السيد العشرى

*قسم اللغة العربية*

*كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم – ماليزيا*

*fatma.alsayed@mediu.ws*

**خلاصة ـــ هذا البحث يبحث في نشأة علوم البلاغة، وبداية نموها على يد المتأدبين والمتكلمين**

**الكلمات المفتاحية : الدراسات النقدية ،النقد الأدبي ، سنة الله**

1. **المقدمة**

**الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، سوف نتحدث في هذا المقال عن نشأة علوم البلاغة، وبداية نموها على يد المتأدبين والمتكلمين**

1. **عنوان المقال**

**قد سبق لنا الحديث -بفضل الله ومنه- عن نشأة الدراسات النقدية، وكيف تطورت في مراحلها الأولى وحان الوقت لأن نثني بالحديث عن نشأة البلاغة، ومراحل تطورها إلى ما قبل عصر عبد القاهر، وعن الحديث أيضًا عن البيئة التي نمت فيها علوم البلاغة، ووجه الحاجة إلى دراستها، وصلتها بكلٍّ من الأدب والنقد الأدبي.**

**نشأة علوم البلاغة، وبداية نموها على يد المتأدبين والمتكلمين:**

**إن حكمة الله تعالى اقتضت أن يجعل لكل أمة لغة تتفاهم بها، ولسانًا تعبر به عن مقاصدها، وتؤدي به أغراضها قال تعالى:** {ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ} **[إبراهيم: 4]، وكان من سنته تعالى أن جعل بين الأمة ولغتها صلة في الرفعة والانحطاط، والموت والحياة، فكلما ارتفعت الأمة؛ ارتفعت لغتها، وكلما انحطت الأمة؛ انحطت لغتها، كذلك تحيا اللغة بحياة الأمة، وتموت بموتها، وتلك سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.**

**وإذا كان لسان المرء أحد المقومين له، ونصفه المنضم إلى فؤاده؛ ليكوِّن وحدته على حد ما جاء في قول الشاعر:**

|  |
| --- |
| **لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده** |

**فالأمة كذلك، لسانها أحد أسوريها، ونصفها المتمم لوجودها، ومن هنا ندرك سر عناية الأمم بلغتها ونشاطها في ذيوعها، إذ ما تفعله الأمم القوية بين أظهرنا من نشر لغتها، وفتح دور العلم، وتشجيع الناس ببذل الجوائز والهدايا على الإقبال عليها؛ شاهدٌ ناطق بأن اللغة عنوان الأمة، وبأن رقيها وامتداد ظلها؛ رقي للأمة، وامتداد لسلطانها، على هذه السنة أرسل الله نبيه الكريم  إلى الناس بلسان عربي مبين، وأنزل عليه بهذا اللسان كتابًا، يهدي إلى الحق، وإلى صراطٍ مستقيم، فدعا الناس إلى توحيد الله والعمل بشريعته، فآمن به من هداهم الله بنوره من العرب وغير العرب، ومن هؤلاء جميعًا تكونت الأمة المحمدية التي ربط بعضها ببعض، ذلك الدين القيم.**

**وذلك اللسان العربي؛ لسان الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولقد بارك الله في الذين آمنوا بالنبي  فنما عددهم، وتزايد جمعهم، وانسابوا في بقاع الأرض، ترحل معهم لغتهم في كل مرتحل، وتلاحقهم في كل موطن قد تآخى العرب والعجم، وامتزج هؤلاء بأولئك؛ فجرت كلمات غريبة من غير اللسان العربي في أفواه العرب، كما غزت العربية ألسنة من عداهم ممن دخلوا في دينهم، وتقربوا إلى لغتهم، عند ذلك لوحظ اعوجاج في ألسنة بعض العرب؛ نتيجة لهذا الاختلاط والتداخل، فخاف الحرصاء على اللغة أن تفسد ملكة العربية فيهم، ويضطرب لسانهم من جرَّاء هذا الاندماج، فوجهوا عنايتهم إلى اللغة، فجعلوا منها علومًا تستنبط قواعدها، وتقرر قضاياها؛ ليتحاشى العرب بتعلمها مزالق الخطأ، ويسير غيرهم على محجة الصواب.**

**وجهوا عنايتهم أول ما وجهوها إلى ما يحفظ هذه اللغة من جهة الإعراب والبناء، وهو ما عُرف بعد بعلم النحو، ثم إلى ما يحفظها من جهة تصريفها وبنيتها، وهو ما عُرف بعلم الصرف، ثم إلى ما يحفظها من جهة مادتها، وهو ما عُرف باسم متن اللغة؛ فكان ذلك أول ما حدث من تدوين العلوم اللسانية ونشأتها، ثم وجه العلماء عنايتهم إلى ما عُرف باسم علوم البلاغة؛ دفاعًا عن القرآن الكريم من جهة ما خصَّه الله به من حسن التأليف والأسلوب، وبديع الإيجاز، وهذا هو أعظم وأهم الأسباب التي لأجلها كان التأليف في علوم البلاغة.**

**فلقد كان الحافز الأول، والأساس لدى من عُنوا بالتأليف في علوم البلاغة، هو البحث في إعجاز القرآن الكريم من أي جهة هو، وكان أبرز جهات الإعجاز فيه جودة النظم، وقوة التأليف، والسمو بالبلاغة إلى الحد الذي لم يستطع عنده أحد من البشر أن يحاكيه، أو أن يمنِّي نفسه بذلك.**

**وما ظنك بكتاب نزل على قوم هم أساطين البيان، وملوك الكلام، فجاء يتحداهم في أخص شئونهم وأبين صفاتهم؛ لتكون الحجة ألزم، والمعجزة به أتم.**

**ومن هنا أخذ العلماء يبحثون عن معنى الفصاحة والبلاغة، وعن الفرق بينهما، وعن سر هذه الخصائص والمزايا التي ظهرت في نظم القرآن الكريم، وكيف كانت له تلك الجزالة التي أخرست الألسن، وأعجزت أساطين البيان، فنشأت عن ذلك مباحث الفصاحة، والبلاغة، والعلاقة بينهما، وأخذوا يدونون فيها، ولم يكن دُوِّن فيها إذ ذاك كتاب مستقل، يضبط أصولها وقواعدها، بل كان كل ما عرف من ذلك رسائل وجيزة، أثرت عن بعض العلماء ردًّا على سائل، أو إفادة لمستفهم على نحو ما جاء من أبي عبيدة على ما سيأتي، أو على نحو ما كان من المبرد حين قصد إليه الفيلسوف يوسف الكندي، وقد ذهب إليه يسأله قائلًا: "إني لأجد في كلام العرب حشوًا، فقال المبرد: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجدهم يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ مختلفة، والمعنى واحد، فأجاب أبو العباس المبرد: بل المعاني مختلفة: فالأول: إخبار عن قيامه، والثاني: جواب عن سؤال سائل، والثالث: جواب عن إنكار منكر.**

**ونحن بدورنا لو تتبعنا مراحل نمو علوم البلاغة؛ لوجدنا مدى ارتباط البلاغة بالنقد، ذلك أن مسائل علوم البلاغة منذ البداية، قد أخذت طريقها إلى النمو والظهور على ألسنة الرواة والمتأدبين، ولكن في غير نظام ولا إحكام، شأن كل جديد ناشئ، حتى جاء أبو عبيدة معمر بن المثنى البصري، الذي أشرنا إليه آنفًا، فوضع كتابه: (مجاز القرآن)، على إثر سؤال وجه إليه في مجلس الفضل بن الربيع، أحد وزراء المأمون عن معنى قول الله تعالى:** {ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ} **[الصافات: 65].**

**وكيف يشبه الطلع برءوس الشياطين، وهي لم تعرف بعدُ، أو ينبغي أن يكون التشبيه بشيء قد عُرف حتى يتبين المشبه، ويتضح، فأجاب أبو عبيدة: "إنما كلمهم الله على قدر كلامهم، وهو على حد قول امرئ القيس:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **أيقتلني والمشرفي مضاجعي** | **\*** | **ومسنونةٌ زرقٍ كأنياب أغوال** |

**والمشرفي: وصف للسيف منسوبًا إلى مشارف الشام، وهي قرى من أرض العرب، كانت تجيد صناعة السيوف، وكلمة مسنونة أراد بها امرؤ القيس: أسنة الرماح، وزرق يريد: صفائها الدال على مضائها، والمعني: أنه ينكر على من يحاول قتله أن يتمكن من قتله، وهو محصن بسيفه ورمحه، إذًا هو يريد أن المشبه به هنا غير معروف كذلك، وأن الغرض من التشبيه في الآية والبيت، عرض المشبه في صورة بشعة مخوفة، والعرب عادةً تشبه قبيح الصورة بالشيطان أو الغول، وإن لم يروهما؛ لاعتقادهم أنهما شرٌّ محض لا يخالطهما خير، فينطبعان في مخيلاتهم بأقبح صورة وأبشعها؛ فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل.**

**فقام أبو عبيدة من فوره، وتقصى جهد المستطيع ما ورد في القرآن من الأساليب البيانية، وجمعها في هذا الكتاب، وأسماه: (مجاز القرآن)، وهو على ما قيل أول كتاب دُوِّن في علم البيان.**

**وأبو عبيدة هذا: هو معمر بن مثنى البصري، أحد رواة اللغة الأعلام، وتلميذ يونس بن حبيب شيخ سيبويه إمام النحاة، وأستاذ هارون الرشيد الخليفة العباسي، وقد كان كتابه: (مجاز القرآن)، كما قلنا أول كتاب يفتح المجال أمام المزيد من البحث في مسائل علم البيان، ثم تبعه العلماء من بعده، فوضعوا رسائل في الاستعارة والكناية، لم تميز علم البيان تمييزًا خاصًّا، وبقيت الحال كذلك مدة من العصر العباسي الأول؛ هذا عن بدايات نشأة علم البيان.**

**أما علم المعاني: فلم يُعرف بالضبط أول من تكلم فيه، وإنما أُثر عن بعض فحول الكتاب والخطباء، كجعفر بن يحيى، ويحيى بن هارون ...وغيرهما، روي عنهما كلام في هذا النوع من البلاغة، ولكنه لم يطبع هذا العلم بطابع خاص، يتميز به عمن سواه.**

**وأول من أسهم لهذا العلم من عنايته وخصه بمستفيض بحثه، ودون فيه ونظم؛ شيخ حملة القلم، وإمام الأدباء، وصاحب التصانيف الممتعة، والرسائل المبدعة؛ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المتوفى سنة 255، دوَّن ذلك في كتابيه: (البيان والتبيين)، و(إعجاز القرآن)، وتبعه العلماء من بعده، كأبي العباس المبرد، صاحب: (الكامل)، وقدامة بن جعفر الكاتب، ووقف الأمر عند هذا الحد طيلة هذا العصر.**

**أما علم البديع، فيقال: إن أول من وضع فيه كتابًا خاصًّا، عبد الله بن المعتز؛ الخليفة العباسي، المتوفى سنة 296، وكان الشعراء قبله يأتون في أشعارهم بضروب من البديع، كبشار بن برد، ومسلم بن الوليد، وأبي تمام، وغيرهم، فجاء ابن المعتز وجمع من أنواعه سبعة عشر نوعًا، وقال في كتابه: "وما جمع قبلي فنون البلاغة أحد، ولا سبقني إليها مؤلف، ومن أحب أن يقتدي بنا ويقتصر على ما اخترعناه؛ فليفعل، ومن أراد إضافة شيء من المحاسن إليه؛ فله اختياره".**

**وكان ممن عاصر عبد الله بن المعتز، قدامة بن جعفر، فجمع منه عشرين نوعًا توارب مع ابن المعتز في سبعة منها، وسلم له ثلاثة عشر تضاف إلى السبعة عشر التي جمعها ابن المعتز، فيكون جملة ما جمعاه ثلاثين نوعًا؛ هي أقصى ما جُمع في ذلك العصر.**

**وجاء العصر التالي، فزاد كل من أبي هلال العسكري، صاحب: (الصناعتين)، وابن رشيد صاحب: (العمدة)، وغيرهما أنواعًا كثيرة، ولا يعجب المرء حين يرى أن معظم هذه الكتب قد ذُكرت إبَّان الحديث عن تطور الدراسات النقدية في درسنا الماضي، فما كل ذلك إلَّا لشدة ارتباط البلاغة بالنقد.**

**المهم، أن علوم البلاغة السالف ذكرها لم تُميز ولم تبوَّب، ولم تفصَّل إلَّا في العصر العباسي الثاني، وأول من نزع عن قوسه ورمى إلى هذا الهدف، شيخ البلاغة؛ الإمام عبد القاهر الجرجاني، صاحب: (دلائل الإعجاز)، و(أسرار البلاغة)، فهو أول من هذَّب المذاهب، وضم شتاتها، وأرسى قواعدها وبوبَّها، فأحسن تبويبها، ورتَّبها فأبدع ترتيبها، وألَّف في ذلك كتابيه سالفي الذكر: (دلائل الإعجاز)، و(أسرار البلاغة).**

**المراجع والمصادر**

1. **القزويني ، زكريا بن محمد القزويني تحقيق: محمد السعدي فرهود ، (الإيضاح في علوم البلاغة) ، طبعة رقم1، سنة النشر: 2001 م**
2. **الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، (دلائل الاعجاز) ، ط5، مكتبة الخانجي، 2004م.**
3. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (دلالات التراكيب دراسة بلاغية) ، القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1987م**
4. **المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها) ، القاهرة، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي، ط1، 1950م**
5. **فيود ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، (علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان) ، القاهرة، مؤسسة المختار ، دار المعالم الثقافية، الإحساء ، ط 2، 1998 م**
6. **الخوارزمي ، الشيخ يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الملقب بسراج الدين السكاكي، (مفتاح العلوم) ، لبنان، مكتبة المقهى، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ، 1987م**
7. **الشاطئ، عائشة بنت الشاطئ، (التفسير البياني) ، مكتبة المجلس، الطبعة الأولى، 1962م**
8. **فيود، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، (علم البديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) ،القاهرة، مؤسسة المختار، 2004**
9. **الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، (البغية على الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة) ،مكتبة الآداب، 1999م**
10. **شاهين، كامل السيد شاهين، (اللباب في العروض و القافية) ،القاهرة، الهيئة العامة لشئون الأميرية، 1978م**
11. **القيرواني، ابن رشيق القيرواني، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) ،الناشر: دار الكتب العلمية، 2001م**
12. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (التصوير البياني) ،القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م**